آداب الطريق

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

(١)

والطريق المقصود هو الطريق الموصل إلى حضرة الحق جل وعلا ، ولما كان هذا الطريق هو أشرف الطرق وأسماها . كان فى حاجة ماسة إلى آداب ، لا بد أن يأخذ بها السالك حتى يصل إلى غايته الشريفة . وإنه لمن دواعى الفخر للصوفية أنهم انفردوا بمعرفة معالم هذا الطريق ، وخبروا مسالكه ، وعرفوا خصائصه ، وندبوا أنفسهم إلى التعريف به ، والدلالة عليه ، ووضعوا له الآداب اللائقة به ، وألفوا فيها الكتب والمصنفات ، وذلك مما يشهد بمثالية التصوف ، وروحه العالية ، واستمداد أصوله من روائع المثل والأخلاق ، ولا عجب . فقائدهم فى ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الذى كرمه ربه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » وحدث عن نفسه فقال « إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق » و « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وإذن فالأخلاق المحمدية المثالية هى الدستور الأول الذى سار عليه مؤدبوا الصوفية وشيوخهم ، وعليها أرسوا قواعد طرقهم . فهم يعتبرون أن كمال الخلق أقصر طريق إلى الله ، وعلى قدر تمكن الروح الخلقية من قلب السالك يكون وصوله ومعرفته . ولذلك قالوا « كل من زاد عليك فى خلقه زاد عليك فى تصوفه » ويقول الأستاذ طه عبد الباقى سرور فى كتابه أعلام التصوف الجزء الأول « إن الصوفية يرون فى الأخلاق تقربا إلى ربهم ، واقتداء بنبيهم ، وتزكية صاعدة تسمو بهم إلى جلال الحب الإلهى والرضا الربانى ، وهو أسمى ما ينشده الصوفى ، ولهذا اتسعت المعانى الأخلاقية لديهم اتساعا كون لهم شخصية خلقية خاصة . ما أحسب أن أحدا من البشر سواهم بعد الرسل تحلى بها أو تحقق بصورها » .

من هذا المنبع الفياض اقتبس الصوفية آداب طريقهم ، وعدوها شرطا لازما يتحقق به المريد إن أراد الوصول وإذا كانت الأخلاق ضرورة بالنسبة لسالك طريق الله أشد ضرورة ، وهو إليها أعظم احتياجا من غيره . وأول أدب يأخذ به المريد نفسه ـ الصدق ـ فلا فائدة ترجى من مريد لا يلتزم الصدق فى قوله وعمله ، والصدق فى الأقوال مطابقتها للواقع اعتقادا ، وفى الأعمال موافقتها للمبادىء والأقوال التى يقولها ويعتنقها . وكذلك لا بد أن يكون صادقا فى نيته بالتوجه إلى الله ؛ حتى يقطع الطريق على وساوس النفس وشكوكها ، ويقضى على ملابسات الشيطان وأرجاسه ، وبذلك تصبح عقيدته خالية من الشوائب والخواطر المعوقة ، وتصبح سريرته صافية خالية من النوايا السيئة . ويعتبر الصدق عند الصوفية المدخل الأساسى للطريق ، ويعولون عليه كثيراً فى وصول المريد إلى الله . ولا غرابة فى ذلك لأن الصدق جماع الفضائل ورأسها ، ومدار الأخلاق جميعها . فما من فضيلة بعد ذلك إلا ويرجع أصلها إلى الصدق . فالوفى صادق لقوله تعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » والأمين صادق ، لأن الصدق والأمانة ينبعان من معين واحد وهو الأيمان « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعدا خلف وإذا أؤتمن خان » والشجاع صادق لقول على بن أبى طالب « الشجاعة أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك » وصاحب النجدة والمروءة والعفة والحلم وغيرها من الفضائل صادق لأن مرجعها جميعا إلى صدق العزيمة والتوجه إلى الله والإيمان ، والإيمان تصديق قلبى وعملى .

والصدق حق . والحق أحق أن يتبع . ومن شأن الحق الغلبة وعدم ثبات الباطل أمامه ، ولذلك كان المتحقق به فائزا منتصرا ناجيا يقول تعالى « بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه ، فإذا هو زاهق » وجاء فى الأثر « إذا كان الكذب منجى فالصدق أنجى » .

وإذا ذكر الصدق فقد ذكر الإخلاص ، والإخلاص روح العبادة وجوهرها ، وهو أساس من أسس الطريق يقول جل وعلا « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها » ويعلق شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوى على هذه الحكمة فيقول « الإخلاص يختلف باختلاف الناس . فإخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلى

والخفى ، وكل ما فيه حظ للنفس فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلبا للثواب وهربا من العقاب مع نسبة العمل إليهم والاعتماد عليه فى تحصيل ما ذكر ، وإخلاص المحبين هو العمل لله إجلالا وتعظيما لأنه تعالى أهل لذلك لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب ، ولذا قالت رابعة العدوية ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك فنسبت العبارة إليها ، وإخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم فى ذلك حولا ولا قوة . فلا يعملون إلا بالله لا بحولهم ولا قوتهم . وهذا أرفع مما قبله » .

ومن آداب الطريق ـ النشاط ـ وأداء الأعمال فى أوقاتها . سواء فى ذلك ما يتعلق بأمور الدين أو الدنيا ، مع إعطاء كل منهما حقه دون أن يطغى أحدهما ـ وخاصة الدنيا ـ على الآخرة .

وقد ورد فى الأثر « لاتؤخر عمل اليوم إلى الغد » وقد تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من الكسل فقال « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضعف الدين وغلبة الرجال ، ومفهوم الحديث يدل على أن الكسل على عمومه ممقوت سواء فى تحصيل المعاش واكتساب الرزق ، أوفى أداء العبادات والطاعات . وإذا كان الكسل فى أداء الواجبات الدنيوية بغيض أشد البغض ، منهى عنه أشد النهى . فهو فى جانب الله أشد بغضا ، وأوجب للمقت والعقاب . وقالوا « من تعود لله عبادة فتركها كسلا أوملالة مقته الله » ويقول النبى صلى الله عليه وسلم « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » وفى حكم ابن عطاء الله التى تعتبر نموذجا فريدا فى الإرشاد إلى الله جاء « إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس » ويقصد ابن عطاء الله الطاعات التى يتكاسل عنها المريد طمعا فى أدائها فى وقت آخر . وتعليل ذلك : أن الإنسان لا يضمن أجله فخير له أن يفجأه الموت وقد أدى ما عليه من أن يفجأه وعليه دين لله لم يؤد بعد . كما أن استغراق الإنسان فى الدنيا استغراقا يلهيه عن أداء واجب الله من أسباب الكفر والضلال . يقول تعالى فى خطاب الكافرين « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والإخرة خير وأبقى » .

والصوفية فى ذلك قوم متعدلون لم يفرضوا على المريد الأنقطاع عن الدنيا وترك

أسبابها ، ولكنهم يقررون مايقرره الشرع الحنيف — الذى يتمسكون به تمام التمسك — من أن الأخذ بالأسباب واجب حتمى يثاب المرء على القيام به غير أن لهم فهما عاليا فى ذلك . فهم فى التمسك بالأسباب لايركنون إليها ولكنهم يصعدون إلى مسببها ، وهم يقومون بواجباتهم امتثالا للأمر الشريف الذى أمر الله به ورسوله ، فلم تحجبهم الدنيا عن ربهم ، ولم تشغلهم عن عبادتهم ؛ ولذلك كفر الله خطاياهم « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الهم بالعيال » وليس المقصود بالطبع ذنوب الذين ألهتهم الدنيا عن ربهم ، وأخذت كل أوقاتهم وملكت شغاف قلوبهم فهؤلاء عباد الدنيا الذين جاء فيهم « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » ولكن المقصود هؤلاء القوم الذين تصاعدت لله أنفاسهم ، وكانت بالله حركاتهم وسكناتهم فاثابهم الله على أعمالهم . حتى إنهم ليجدون الثواب فى لذاتهم . بل إن بعض الصوفية يرى أن التولى لمصالح المسلمين والقائم بها على وفق الشرع وقصد الإخلاص هو فى عبادة أفضل من أشتغاله بالأوراد . ذكر ذلك الشيخ محمد أمين الكردى فى كتابه تنوير القلوب .

ويعنى الصوفية جيداً بتدبير الوقت ، وليس أشد عليهم من ضياعه سدى . فهم يعتبرون أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ويعتبرون كذلك أن للأوقات حقوقا واجبة الأداء ، وأن الغفلة عنها مضيعة للدين ومذهبة للعقل ، وبالأولى معونة عن الطريق . وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة الانتفاع بالوقت بقوله « وعلى العاقل — ما لم يكن مغلوبا على عقله — أن يكون له ساعات ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجة من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزود لميعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم » أخرجه الحاكم وابن حبان فى صحيحه .

هذه بعض آداب الطريق ، أما بقيتها فلها حديث آخر بتوفيق الله تعالى . ما